الفصل الثالث

الأسماك فى مهاجرها

كانت الهجرة عند الناس من قديم الزمان انتجاعا للرزق ، أو حبا فى الاستطلاع أو خوفا من انتقام ، أو تخلصا من عار ، أو ملالا من مقام ، أو بعدا عن استعباد أو استشفاء بموقع ، أو تحقيقا لخيال ، أو مباهاة بمال ، أو استمتاعا بنعيم ، أو استزادة من علوم ، أو معرفة بشعوب ، أو خدمة لدولة ، أو فتحا لاتساع ، أو غزوا لقوة ، أو استكشافا لمجاهل ٠

ذلك ما يفعله الانسان ، فيلقى من مواطنيه كل اعجاب وتقدير ٠ وتخلد ذكراه وتقام له التماثيل ، وفاق ما لقى من مشاق ، وما اقتحم من صعاب ، وما أدى من أجل الأعمال ٠

ولا شك فى أن رائد الانسان فى هذا هو عقله الهادى وارادته الفعالة ، أما السمكة فنجد أنها صاحبة الفضل فى اقتحام هذا الميدان وضرب الأرقام القياسية فيه ، واذا ما رأينا ما تفعله ، وما تقطعه من مسافات وبحار وطرق وأنهار ، تقضى فيه أياما بل أسابيع بل شهورا ، على ضآلة حجمها ، وحدود طاقتها ، وصعوبة مسالكها فى الماء ، وما تتعرض له من أخطار قاسية ، تأخذنا الدهشة ، فتتضاءل ـ ولها أن تتضاءل ـ قوة الانسان فى هذا المضمار ٠

وان كانت هجرة الانسان ارتجالية أو انفرادية ، تتحكم فيها ظروف عارضة ولا تسير طبق خطط موضوعة مرسومة ، وليس لها رابط ، ولا بينها ارتباط ، فهى بذلك لا تسمو الى نظام الأسماك فى مهاجرها وفى جولاتها ، وهو نظام لا يشذ ولا ينبو ، ولا يخل ولا يمل ، يتبع البصيرة الهادية ، والغريزة الداعية ٠ صنع الله ومن أحسن من الله صنعا ٠ صدق الله العظيم ٠

لقاء الصيد والصياد :

هجرة الأسماك لها ميعاد يلتقى فيه الصيد والصياد ٠

ما أشبه العام بالعام ، واليوم باليوم ، فى مطاوى الزمن ، وعلى كر

السنين يذهب الى عودة . وينتهى الى رجعة . ويعود الصياد ليتقابل مع زميله الصياد ، فى المكان المعلوم والوقت المرقوم ، كل بسفينته ، يعد عدته ، ويدلى بدلوه فى الدلاء ، فهو يوم الاجتماع سنة بعد سنة ، وفيه اللقاء ، بغية الرزق . وبغية الصيد والغرض واحد والهدف واحد ، والمكان واحد . واذا بالصيد هو الصيد ، تقصد مكانها المعروف المألوف ، لغريمها المتربص الذى يترقبها فى لهفة ، ويستقبلها فى شـــوق وحرارة ، وهى قادمة تتهادى من مكان سحيق ، لقضاء محتوم ، وتراها قادمة زرافات زرافات . وترى السفن ترابط فى المكان المقدور ، فتملؤه وتعمره وتغمره ، فتجمع وتحصد وتملا وتفرغ ، تنشر الشباك وتضمها ، وهى كلما أخذت من الأســماك فوجا حــل محله فوج ، وكأن الأســماك تلقى بنفسها على الشباك القـــاء لتكون مع زميلات لها سبقتها من قبل ، أو ظنا منها أنها سوف تغلب البشر وتتغلب على شباكه وشراكه ٠

وفى صيدها اسعاد وحياة وفرحة ، وهو عيــد لهؤلاء الصيادين . يحتفلون بمقدمه ، ويعملون فيه أياما ، تمتد الى أسابيع ، وقد تصل الى شــهور ، فى كد وكدح ، ونشــاط ومثابرة ، حتى يحقق الله آمالهم ، فيبتهجون بهدية الزمان والمكان ويفتنون على حساب هذه الأسماك المسخرة لبنى الانسان ٠ ذلك تقدير العزيز الرحمن ٠

حتى اذا ما انتهى الموسم ، وانتهى أمر هـــذه الأفواج المهاجرة من الأسماك ، فمنها من قضى نحبه ، ومنها من أفلت ونجـــا ، أقفر المكان . ونزح الشباب والشيب والغلمان ، وهكذا كان المـكان بالأمس خلوا من الناس ، ومجدبا من السمك ، فلما انقضى الموسم عاد كما كان خلوا من السمك ومجدبا من الناس ٠

وما أشبه هذه المواسم ٠ مواسم هجرة الأسماك ، ومواسم صيدها ، بانتجاع الناس للمصايف والمشاتى ، واذا بالأماكن عامرة مكتظة ، ثم اذا بها خالية قفراء ، تصفر فيها الرياح ، وكأن لم تغن بالأمس ٠ وهكذا تسعد البقاع وتشقى ، فى جولات الفلك الدوار ، الذى لا يقر على قرار ٠

والعام عند الصياد فصول محددة معينة ، لكل منها ثماره ، يحصدها فى ميعاد موقوت ، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ٠ ولئن اختلفت كمية المحصول ، وقيمة الرزق عاما عن عام ، فلن ينسى السمك أن يفى بعادته ، فى اليوم المحدد لزيارته ، وكأنه يحج الى البقعة التى قضت على أسلافه ، تحية منه ووفاء للذكرى الخالدة المتجددة ٠

وكما تظهر الأسماك فى موعد معين ، فهى تختفى فى وقت معلوم ،

وما أشبه الصيد والصيادين بفلاحة الأرض والفلاحين ، فى مواعيد بذر المحصول وحصده ٠

ونخلص من هذا كله بنتيجة ثابتة هى أن دورات هجرة الأسماك منتظمة انتظاما عجيبا ، بحيث يخلف النـوع ما سبقه من الأنواع ، لا اعتداء على حق ، ولا شذوذا عن دور مرسوم ، وكأنها اتفاقات تقليدية وراثية ، وان لم تكتب على قصاصات من ورق أو تثبت فى سجل مكين ، وبالتالى ما رفع أمرها الى قضاء ولا الى تحكيم ، فما أحكم السمك وأقربه للروح الانسانية الحقة ! ٠٠ هـذه قوانين الطبيعـــة صريحة سافرة ، لا استعمار ولا استكراه ولا غصب ولا حلف ، انه فضل الله على الانسان فهل من مدكر ؟ قتل الانسان ما أكفره ؟!

ولقد كانت النظرية المعروفة حتى القرن الماضى أن الأسماك كالطيور، تتجمع فى مكان واحد ، كفرق الجنود ، وتبدأ سيرها من مكان معين ، فى جموعها الحاشدة فى طريق رحلتها الى المكان المقصود ، وان لهـا سبيلها المعتاد الى هدفها المنشود حتى يصل سالما الى آخر المرحـلة ٠ ينتشر فى البحر ، ليعـــود الى المكان الذى ابتدأ منه فى العـام السابق ، فيتجيش بعناصر مجندة مستجدة ، تسير فى ركابه مرة أخرى لتؤدى الرسـالة الأزلية ، وهكذا دواليك ٠

ولكن ثبت أخيرا أن الأسماك اذا ما حان وقت الهجرة ، بدأتها من حيث تكون ساعية الى هدفها ٠ لا ينتظمها شمل ٠ وان كانت تربط بينها غريزة مسددة الأهداف فتتلاقى فى طريق الحج ٠ وكأنها كانت على ميعاد ٠ لتصبح موسما وعيدا وبهجة للصيادين ٠

ومن الطريف أن هناك ظاهرة ثابتة ٠ تبدو للفاحص المدقق ، هى أن الماء الذى ينتهى به المطاف ، يستعد لملاقاة الصيد ، ويتزود بخصائص جديدة ، لم تكن له من قبل ، وتختفى بعـد انتهاء هذه المقابلة ، فتمتلىء المياه قوة ونشاطا بما يحدث فيها من تحول فى نسب الأوكسجين والحرارة ٠ وهـذه الخواص وان كانت فى الواقع من الخصائص الدائمة للمـاء ، ومن صفاته المســـتقرة ، الا أنه فى غضون هجرة الأسماك ، تقع فيه تغيرات واضحة ، تكاد تجعل له خواص جديدة تعود سيرتها الأولى اذا ما انتهى الموسم ، وانفض السامر (١) ٠

وليست الهجرة لدى الأسماك وليدة الصدفة ، ولا هى نتاج الارتجال

---

(١) هذا ما يقوله الصيادون ويؤمنون به وقد يحتاج الى بحث علمى لاثباته ٠

وانما للهجرة احكام ، وللطبيعة ناموس والهام . تخضع له الأسماك فتجذبها جذبا الى القيام بهذه الرحلة الدورية ، فترى مكانها قد ملها قبيل الهجرة فأصبح غير ملائم لبقائها ، بل ليكاد يوحي اليها أن تسعى الى المكان النائي الذى يعد نفسه للقائها ، وتجد فيه راحة وقرارا ، وطعاما مريئا وشرابا هنيئا .

والسمك دائب على الهجرة ، سواء أكانت هجرة طويلة المدى بعيدة الآفاق ، أم قريبة المزار محدودة المعالم ، ويخضع ذلك كله الى ضرورة التوافق والانسجام بين رغبات ملحة فى بواطن الأسماك ، وبين عوامل الظروف والمكان والزمان .

من ذلك أن فصيلة سمك الكارب (الميروك) يجيئها وقتها فتدعوها غريزة ملحة الى تغيير مكانها فى البركة الواحدة ، فتهدف الى مكان آخر فى نفس البركة ، يكون أكثر دفئا ، وأغنى عشبا ، حيث تجد البيئة الطيبة التى تحتاج لها كى تبيض وتفقس فنراها تحج الى هذه البقعة ، دون سائر مواقع البركة ومواضعها ، وهذا هو الطريق الذى رسمته الطبيعة لمعظم الأسماك فى مثل هذه الظروف .

اما الأسماك التى تتخذ هجرة طويلة المسافات ، وتقضى فيها شهورا عدة ، فيغلب أن يكون مقرها الاعتيادى فى مياه ملحة ، فتهجرها فى وقتها المعين الى مياه عذبة أو العكس بالعكس .

وايا كان الباعث للأسماك على هجرة مواطنها ، ومهما غزوناها الى رغد المهجر أو الى ملاءمة جوه للأسماك ولصغارها المنتظرة ، فاننا لا نعدو الواقع اذا قلنا أنها فعلت ذلك عمدا واختيارا ، ولكن العقل أو التفكير ، لم يتهيأ للأسماك فى واقع الأمر ، وانما هى قوة الله مدبرة هادية مرشدة ، ترسله نظاما دقيقا محكما ، تسير عليه هذه المخلوقات ، فلا يحوجها الى عقل ولا الى تفكير ،ويعوضها ببصيرة وغريزة ، ويوجهها الى ما يحفظ كيانها ويبقى على سلالاتها ، لتقوم بدورها فى نظام الكون ، ولو أننا أطلنا الفكر فى عجائب خلق الله وحسن نظامها وتنظيمها ، لانتهى بنا الخيال الى أن نسجد لله شكرا ، ونحمده على ما سخر لنا من مخلوقات ـ « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا » ـ صدق الله العظيم .

مصر مهجر السردين :

قلما تجد حانوتا أو مطعما ، فى مدينة أو قرية ، خلوا من صندوق من السردين المحفوظ ، فهو طعام معروف فى العالم ، ميسور للآكلين ،

لا يحتاج الى اعداد أو طهو ووضعه يتقدم الأطعمة عند المترفين ، ويقتصر عليه طعام كثير من العاديين ، وقد عمت تجارته واشـــتهرت في أقطار الأرض لأنه طعام جزيل الفائدة ٠

كم من صندوق يبـاع ويطعم في كل عام ؟ وكم من آكل سعيد ؟ وان بعدت الدار وشط المزار ! فهـل لنا أن نتساءل كم واحدا من هؤلاء الناس أرسل نظرة الى السردينة المعدة أمامه في الطبق ، وفكر جيـدا كيف نشأت ، وكيف نمت ، وأين كانت ، ومتى صيدت ، وكيف صنعت حتى أصبحت بين يديه ، وفي متناول فمه ؟! ٠

الغالبية العظمى من الناس تحسب ـ والسردين أمامها ـ أنها تعرف السردين على حقيقته اذا ما رأته في صندوقه يعلوه الزيت ، أو حتى اذا رآه الرائي وهو لا يزال على شكله المعروف قبل أن يصنع أو يطبخ فما رآه حقا ٠ ليس هو الذي يحمل الصورة الحقيقية للسردين وهو يرتع في البحار ٠ فان السردين ما يكاد يفارق الماء حتى يفقد لونا كان ناضرا وبريقا كان يخلب الألباب ويزري بالدر والجواهر ، وان كان هذا اللون لا يزيد في سـمكة السردين على اللون الأزرق الفاتح ، والأبيض الدري ، ولكن لألاءه الوضاءة يعكس أعجب الألوان وأزهاها وأبهرها ٠

ومن شاء أن يعرف السردين على حقيقته ، ويرى بهاء ألوانه ، وبريق لمعانه ، فليجشم نفسه الوقوف مع الصيادين ، وهم يخرجون الشبك من الماء ٠ عندئذ يرى أبهج المناظر وأحلاها ، سيرى كتلة من الدرر البراقة ، ومجموعة من الجواهر المتموجة الخفافة ، فلا يخيل اليـــه أن هذا هـو السردين ٠

وسردينتنا المصرى ، أو الذي نصيده في المياه المصرية ٠ يظهر أسرابا وزرافات وأفواجا بعد أفواج ، في مواعيد يعلمها الصيادون ويترقبونها ويجوبون المياه استطلاعا للكسب المنتظر المرموق ، فهم يخرجون بدورهم زرافات وأسرابا ، أفواجا تتلوها أفواج عندما يأذن سدا رشيد ودمياط ويتقابل ماء الفيضان العذب ، بماء البحر الملح ، أي في أواخر أغسطس من كل عام ، وتبلغ الذروة في أشهر سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر اذ يكون النيل قد اكتمل فيضانه ، واختلطت ميـــاهه الحمراء الغنية بمياه البحر الأبيض المتوسط تحمل اليها الأحياء المائية الدقيقة والنباتات والأعشاب والمواد المعدنية الذائبة فتكون طعاما سائغا مرغوبا تعرف مكانه أفواج السردين فتقبل عليه ، وتلجأ اليه ، يزيدها رغبة فيه ، أن تكون مياه النيل دافئة ، تبعث الحرارة في ماء البحر البـارد ، فيجتمع لهـا دفء وغذاء ، ويكون لها منه قوت ونماء ٠

هذه هى العوامل الهامة فى هجرة السردين ، وهى تتخذ فى غمار هذه العوامل ظاهرة تتميز بثلاثة أدوار · فهى فى الدور الأول تحس حافز الغريزة الجنسية ، فتبحث عن الوسط الملائم للافراخ ، وهو الوسط الدفىء الخفيف الوطأة ، فيهيئه لها مصب النيل عند شواطىء مصر ، وكأنها تعرف ذلك بالبصيرة وبالغريزة وبالوراثة القـــديمة ، فتلجأ الى شواطئنا لتبيض وتفرخ ·

وما أن تصـــل الى الشاطىء الدافىء الملائم · حتى تجد أن النيل قد حمل الى البحر خيراته وطيباته ، فتطعم من هذه الخيرات والطيبات ، وتعبها عبا وتلتهمها التهاما · فى لهفة الجائع ، وفى جوع النازح الطويل السفر ــ وهذا هو الدور الثانى من أدوار هجرتها ·

بعد هذا الدور تكون قد تغذت وشبعت ، وسمنت وتقوت ، ثم تضع كل ذات حمل حملها ، وفى الوقت نفسه يكون قد تم اختلاط مياه النيل بمياه البحر ويتغير الوسط المائى على الحيوانات البلانكتونية للنهر والبحر معا ، فيفقد كل من نوعى هذه الحيوانات قدرته وقوته على البقاء ولا يعود غذاء طيبـــا شهيا ، فيأخذ السردين فى التسلل ، ويؤذن موسم الهجرة بالانتهاء ، ورويدا رويدا يقفز الساحل ويعود سيرته الأولى ·

الثعبان المائى فى هجرته :

الحديث عن الدورة الهجرية لثعبان البحر سيفضى بنا حتما الى أن الحقيقـة أغرب من الخيال ، وأعجب من الأساطير الروائية التى يتفنن الشعراء والأدباء فى خلقها وابتداعها · فهل سمعت يوما أن أحد مخلوقات الله لا يولد الا يتيما ؟ ·· هذا هو ثعبان البحر ·

فمن عجيب أمر الثعبان أنه اذ تلح عليـــه الغريزة الجنسية ، يعرف أن نهايته قد دنت ، وأن رسالته قد حان وقتها ، وأن يسلم مشعل الحياة الى سلالته القادمة · فيبحث عن بقعة فى قاع البحر ، مبعـدة فى الظلمة والانعزال شـــديدة الملوحة · فيضع البيض الصغير على مسافة لا يصل اليها أمهر الغواصين وتبعد عن سطح الماء بمـا لا يقل عن ١٢٠٠ قدم ، وبهذا تنتهى رسالته ، وتنتهى حياته ·

أما هذه البويضات الدقيقة التى قضى عنها الأبوان ، وتركاها تحت رحمة الأقدار فى البقاع السحيقة المظلمة · فتفقس بدورها حيوانات يتيمة رقيقة صغيرة ، هى فى أول أمرها شريطية منبسطة ، ثم تأخذ فى التحول الى الشكل الأنبوبى المعروف ، وهنا تواجهنا أعجوبة جديدة ، فان الذى

نعرفه عن فترات التحول والنمو أنها تستدعي من الحيوان والانسان غذاء ممتازا ، وأكلا نهما • ولـكن هذا الثعبان الوليد ، اذ يمر بدورة التحول والنمو وهي تستغرق ثمانية أشهر أو تسعة ـ يمتنع عن الأكل امتناعا تاما لأن الأســـنان البدائية الصغيرة التي كانت بارزة الى الأمام تختفي لتنمو بدلها أسنان قوية كبيرة على فكيه العلوي والسفلي •

وبعد انقضاء هذه الفترة يكون قد اكتمل للثعبان من النمو مايواجه به عقبات الحياة وأعباءها ، ويستعد للعيش على أكمل ما يكون العيش ، فتنبئه بصيرته وغريزته ، ان لم يعد له مقـــام في البحر ومائه الملح ، ولابد له من ماء عذب يرتع فيه ويمرح •

وهنا نقع على الحاسة العجيبة الغامضة التي تشعر الثعبان بمواقع الماء العذب وتقوده الى مصبات الأنهار ، فيهجر البحر متجهـــا الى مهجره فتلتقي الجموع النامية التواقة الى الحياة والى المتعـــة بالعيش وهي في طريقها الى الكعبة المنشودة تجمع بينها الغربة ووحدة المقصد والهدف فتصل أفواجا زاخرة الى مصب النهر ، فيقع منها ما يقع في شـــباك الصيادين وهو كثير • وينجو من الشباك ما ينجو ، وهو غزير ، وفير ، وهذه هي هجرته الأولى •

واليك العجيبة الثالثة • هذا الثعبان الأصم يؤثر البرك على الأنهار وفيه غريزة تنبئه بمواضـــع البرك القريبة ، واذا به يخرج من ضفة النهر ، ويتسلق جســـوره وجوانبه ، ثم ينساب كالأفعى على الأرض والحشائش ويستمر في سيره مستعينا بملاسة جسمه المغطى بغشـــاء مخاطي • ويخب في سيره حتى يصل الى البركة التي أحسها بالهـــامه ، واختارها سكنا له • أما كيف للسمك أن يبقى كل هـــذه المدة خارج الماء ؟ • فهذه أعجوبة الثعبان ، لأن جهازه التنفسي مزود بفجوات كثيرة يملؤها بالماء قبل أن يترك النهر ، لينتفع بالهواء المذاب فيه أثناء رحلته التي قدرها تقديرا ، وهو يتأهب لذلك بضيق الفتحة الخلفية ليحشومه كما ذكرنا في الفصل الثاني •

ويظل ثعبان البحر في الماء العذب ، حتى يكتمل نموه • ويصل الى طـور البلوغ ما بين خمس ســـنوات وثمان ، واذ ذاك تحـدث العجيبة الرابعة • فانه ما يكاد يحس بالبلوغ حتى يعرف أنها بداية النهـاية ، وأن عليه أن يترك الميدان لأحناش تصغره من ذريته ، فيعود من البركة الى النهر ، متخذا للأوبة طريق الذهاب ، لا يتعثر ولا يخطىء ولا يريم ثم يصعد في النهر في جموع كبيرة زاخرة متجها نحو المصب وهو البحر ،

منه ولد واليه يعود ، وهو اذ يصل الى البحر يمتنع عن الأكل · ويصـــوم صـــوما تاما · الى أن يجـــد الموقع الملائم · ويضع بيضـــه ثم تلين عظامه ويموت · وهذه هجرته الثانية ويسميها الصيادون « خرجة الحناش » ·

ومن العجيب أنه اذ تناديه الغريزة · غريزة العودة الى البحر · يأخذ جسمه فى التشكل للوسط المرتقب · ليتحمل الضغط الشديد الذى يقع عليه من الماء الملح فى الأعماق البعيدة ، فتتولد تحت جلده فقاعات غازية تساعده على مقاومة هذا الضغط الشديد ·

ونختتم حديث هجرة الثعابين بأعجب العجائب . فانه عندما تنادى الثعبان غريزته ويحين موعد عودته الى البحر ، ان كان غير طليق بأن كان مسكنه فى بئر مثلا أو أسيرا فى حوض مائى ، فلا يمنعه هـذا من القيام بدوره نحو مصيره المحتوم فيتبع نفس الدور الذى كان يؤديه فيما لو نجح فى الوصول الى البحر ، اذ يصـــوم عن الأكل وتلين عظامه ، ويفارق الحياة ·

ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه الدورة الثعبانية ، من البحر الى النهر فى شبابها أو صباها ، ومن النهر الى البحر عند اكتمالها ومنتهاها ، يتكون منها هجرتان تتجمع فيهمـا هذه الأسماك ، وتكون صيدا ثمينا للصياد · يعرفه بالميعاد · فيهىء له العـدة والعتاد ، ويستعد له أيما استعداد ، ويعتبر مقدمه عيدا من الأعياد عرفه عن الأجداد ويلقنه الأحفاد · على كر السنين والآماد ·

هجرة البورى والطوبار :

انظر شكل ٦

قلنا ان الثعبان يقضى زهرة حياته فى المياه العـــذبة ، حتى اذا ما استوى له النضج الجنسى ، اقتحم العوائق والصعاب ، ليسعى الى البحر ، فيبيض وينتهى · أما البورى والطـــوبار ، فدورة حياته تشبه الثعبان فى الجزء الأعظم منها ·

فسمك البورى والطوبار هو الآخر يبيض ويفرخ فى ميـــاه البحر الملحة التى تناسب ظروفه التناسلية ، ولكن الآباء والأمهات لا تموت ، بل تعود بصغارها ، زرافات ، وأفواجا أفواجا الى موطنها العذب ، حيث تقضى فترة النمو والاكتمال ، حتى اذا انقضى عليها صيفان وآن لها أن تفرخ بدورها خرجت الى البحر ، وهكذا دواليك ·

شکل (٦)

وهجرة الأسماك الناضجة من البورى نحو البحر تكون عادة فيما بين شهرى مايو وسبتمبر ثم تعـود أفواجا متتالية فى غضـــون المدة من منتصف سبتمبر الى منتصف ديسمبر ، وان كان موسم توالد الطوبار يتاخر قليلا عن موسم البورى ٠

وهذه الهجرة يحسب لها الصيادون ألف حساب ، ولها عندهم القيمة الكبرى لأن هذا النوع من الأسماك لذيذ الطعم ، غنى بالدهن واللحم له ثمن قلما يصل اليه ثمن نوع آخر من الأســـماك ٠ ومن البورى تستخرج « البطارخ » التى تباع بالدينار ، وما هى الا بويضات السمك التى أراد أن يخرج الى البحر ليلقيها ، فأوقعت به شباك الصيادين قبل أن يؤدى مهمته ، ويخرج سلالته ٠

بحث ودراسة فى سمك المياس

المياس سمك معروف فى جميع الجهات الساحلية للقطر ، وله أسماء محلية فى مختلف البلاد ، فهـــو فى الاسكندرية وضواحيها « مياس » وفى رشيد وضواحيها « زوافخ » وفى بورسعيد ودمياط ومنطقـــة قناة السويس « أصوار » وله فى شتى هذه المناطق موسم معروف منتظر ، كموسم السردين وموسم هجرة البورى وغير ذلك من الأسماك التى تكثر فى مواعيد معروفة ٠

ومن غريب الأمور أنه لم تقم الى الآن محاولة علمية جدية لدراسة دورة هذا السمك وطريق مقدمه ومكان افراخه ومواعيد قدومه وعودته وطرق استيطانه ٠٠ الى آخر ما يجب معرفته عن سمكة من أكثر الأسماك شيوعا لدى المصريين فى فصل من فصـــول السنة بل فى معظم فصول السنة ٠

قيل ان المياس يوجد على ساحل المغرب والسنغال ، وتصاد منه كميات صغيرة فى البحر الأبيض المتوسط على الشـــواطىء المصرية اذا ما قورنت بالمصيد منه على ساحل مراكش ٠ اذ يبلغ متوسط الانتاج منه سنويا فى مصر حوالى ٥٥ طنا بينما هو فى مراكش ٢٨٠ طنا ــ ممـــا يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن المياس يفد الى الشواطىء المصرية من المحيط الاطلانطيقى ٠

ولكننا نرجح بعد ما استخلصناه من ظروف المياس ودوراته ، أن هذا السمك يفد الينا دائما من الشرق وليس من الغرب كما هو معتقد

شکل (۷)

حتى الآن . وقد بنى هذا الاعتقاد على وجود المياس بكثرة فى مراكش وهى غربى مصر ، فقبل قدومه من المحيط الأطلسى محاذيا الساحل الافريقى يتجه الى الشرق حتى يصل الينا ٠

وقيل أيضا أنه يغادرنا سائرا الى الشمال ومتجها الى البحر الأسود ثم يتم دورته على ساحل أوربا الجنوبية الى الغرب حتى يخرج الى المحيط من حيث أتى ٠

بينما الصيادون وخبراء البحر منهم قد أكدوا لدى بالاجماع أنه يقدم من الشرق ليعود الى الشرق ثانية بعد انتهاء دورته ٠

ولهذه الأسماك فى مقدمها من الشرق هجرتان ٠

١ ـ الهجرة الاولى : وتسمى عند الصيادين المصريين «سمك الملطم» ، تقدم فيها الأسماك من الشرق فى مدة الخماسين (أى حوالى شم النسيم فى أواخر برموده) ـ وهذا الموعد يعادل أواخر ابريل أو أوائل مايو ـ وتصل الى الاسكندرية فى بشنس ـ أى فى خلال شهر مايو ـ اذ يكون اتجاه الرياح من الشرق فيسهل سير السمك الى الغرب ، ويظل السمك سمينا وتتخذ بويضاته صورتها النهائية فى خلال بشنس وبؤونة ـ أى فى مايو ويونيه ٠ وفى ذلك الوقت يكون قد لجأ الى ساحل مصر الغربى الرملى حيث يفرخ فى شهر أبيب ـ أى فى يوليو ـ ويبدأ فى العودة فى شهر مسرى ـ أى فى أغسطس ـ راجعا الى الشرق ٠

٢ ـ الهجرة الثانية : وتسمى عند صيادى السواحل المصرية « سمك النيل » تقدم فيها الأسماك من الشرق فى شهر بابه ـ أى فى أكتوبر ـ وتصل الى الاسكندرية فيما يسمى عند الصيادين « نوة قاسم » فى هاتور وكيهك وطوبه وفى هذه المدة يرابط عند (**سيدى عبد الرحمن بالصحراء الغربية**) لأن ساحلها رأسى فى البحر ولا يوجد بها أنواء مهما كان هياج البحر ٠ ويفرخ فى أمشير ـ أى فى فبراير ـ ثم يعود الى الشرق ٠

ومكان الافراخ على العموم هو الساحل الرملى الغربى لمصر حتى العلمين ٠ ولا يصل المياس الى أبعد من سيدى عبد الرحمن ٠ وهو بعد يقصد هذا الساحل للافراخ حتى يستطيع أن يحك بطنه على الرمال لاستخراج البطارخ (البويضات) ومما هو جدير بالملاحظة أن الساحل المصرى فى غير هذه المناطق طينى أو به صخور ٠

وللتدليل على أن سير المياس من الشرق الى الغرب عند القدم يثبت خبراء البحر وكبار الصيادين أقوالهم بالأدلة الآتية :

١ ـ ان المياس يظهر أمام بورسعيد ودمياط وأبى قير قبل أن يظهر فى الاسكندرية · ويصاد منه فى تلك المناطق قبل منطقة الاسكندرية

٢ ـ ان المياس فى قدومه من الشرق الى الغرب يكون سمينا وبه البويضات وصائما فلا يمكن صيده بالسنارة ، لأنه لا يقبل عليهـــا ولا يبدى أية رغبة فى التهام طعمها ولا يصاد الا بالشباك وفى عودته من الساحل الغربى يكون مريضا وجائعا وخاليا من البويضات ، ويقبل على طعم (السنارة) بشراهة فيحصل صيادو (البوصة) على كميات كبيرة منه وبغاية السهولة ·

٣ ـ يحدث كثيرا أن يلتقى فوج سمين مبطرخ قادم من الشرق مع فوج ضعيف خال عائد الى الشرق ، فى جرافة واحـــدة ، فى المنطقة الغربية ، أو تخرج الجرافة من قرب الساحل أسماكا من الميـاس بعضها قد ألقى بويضاته والبعض الآخر لا يزال يكن حمله ·

٤ ـ أكد بعض ثقاة الصيادين انهم رأوا ملايين الملايين من البويضات واليرقات عائمة على سـطح الماء فى الساحل الغـربى ، على هيئة النخالة المنتشرة فى تجمعات على صفحة الماء ·

٥ ـ فضلا عن هذا كله فان اتجـــاه سير الأسماك ذات الأفواج مما يهم الصيادين كل الأهمية ، اذ يلقون شباكهم فى طريقها بالتالى بعد أن يعرفوا خط سيرها جيدا ، اذ لا فائدة ترجى من القاء الغزولات فى غرب الفوج اذا كان متجها الى الشرق ·

نخلص من هذا كله الى أن المياس يقدم من الشرق منتجعا مياه مصر الأكثر دفئا فى شهر مايو عنها فى المياه الشـمالية ، ثم تلقى حملها فى الساحل الرملى الغربى لمصر · حتى اذا أقبل أغسطس كانت مياه مصر أدفأ مما تكون مرغوبة له ، فيعود الى الشرق منتجعا السواحل الشمالية الأقل حرارة وتكون معتدلة البرودة · حتى اذا أوشك فصل الشتاء على الاقتراب وأخـذت مياه البحر الأبيض المتوسط فى البرودة هجرها الى السواحل المصرية مرة أخرى ويتصادف قدومه مع وقت الفيضان فيتغذى منها وينمو · ثم يعود الى الشرق فى فبراير اذ يأخذ فصـــل الشتاء فى الانتهاء وتنتهى معه برودة الشمال الحادة ·

واذا نظرنا الى وجود المياس بكثرة في مراكش · وما بنى على ذلك من قدوم المياس الينا من الغرب ، فاننا نستنتج منـــه شيئا يختلف كل الاختلاف فنرى أن دورة المياس الموجودة في مراكش مستقلة كل الاستقلال عن دورة المياس الذى يقدم الى بلادنا ونميل الى الاعتقاد بأن لكل من حوض البحر الأبيض المتوسط شرقا وغربا دورة مياس خاصة به · وربما كانت ايطاليا وجزيرة صقلية هى الحد الفاصل بين الدورتين (١) ·

وبذلك يـــكون المياس عندنا هو من دورة الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط · وقد يكون قادما من البحر الأسود متخذا ســواحل تركيا والشام الى الساحل المصرى حتى يصل الى الساحل الرملى فيحط رحاله · وفي العادة لا يتعدى منطقة سيدى عبد الرحمن · اذ لم يظهر منه شيء بعد ظهوره في هذه المنطقة ولعــله وقد وجد السطح الرملى الذى يحتك به ليفرخ بويضاته · لا يجد ضرورة للبعد أكثر من ذلك ·

وسفن الصيد اذ تخرج لصيد المياس في مواسمه المعروفة ، يتبعون في ذلك طريقة أملتها الخبرة والتجربة على طول السنوات ·

اذ يقف « ناطور » عند مقدمة السفينة أو فوق ساريتها ويستطلع سطح البحر فيرى المياس واضحا على هيئة قرص أصـــفر ، واذا كان السرب كبيرا جدا يميل لون القرص الى الاحمرار ، وهذه الأسراب تمتد الى القاع نحو عشرة أمتار ، وتلف في الماء ويحتك بعضها بالبعض في أثناء السير حتى ليصيب بعضها بعضا ومن هذا الاحتكاك تتكون مادة هلامية على ظهر السمك تطفو على وجه المـــاء على هيئة رغوة الصابون يسميها الصيادون « ملأة » أو « ملقه » ·

فاذا أدرك الصيادون وجود سرب المياس ، تشترك سفينتان معا · وتتجه واحدة الى ناحية والأخرى الى الناحية المضادة لجمع الغزل حــول هــذا السرب . حتى اذا أحاط بالسمك وخصوصا من اتجاهه الأمامي · أخذ الصيادون في ضرب الماء بقطع من الحجر أو بالمراسى لتنفير السرب فيفر للنجاة في مختلف الاتجاهات فيقع في الغزل اذ تشتبك رأســـه بعيون الغزل فلا يستطيع منها فكاكا ·

أما اذا كانت الأسراب قد هبطت الى القـــاع المعشوشب ورآها الصيادون ، فانهم لتنفيرها من مكانها يغطسون الدفة في الماء مع تثقيلها

(١) هذا هو رأى أجمع عليه الصيادون المحليون أضعه تحت أنظار علمائنا ليقرروه بعد البحث العلمي ·

بواسطة المرساه (الهلب) ثم يجرفون بها القاع لتهييج الأسماك فتهرب خوفا على صغارها فتقع فى الغزل ٠

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن الساحل الرملى بين العجمى والعميد كثيرا ما تمتد به من البر الى داخل البحر السنة من الأعشاب (القش) مستقرة على القاع الرملى الساحلى على نحو مترين أو ثلاثة عمقا ، وطول اللسان فى العادة يبلغ من ٢٠ الى ٣٠ مترا وعرضه يتراوح بين ١٠و١٢ مترا ٠ ويسمى فى لغة الصيادين « زوف » ٠

وهذا الزوف يأوى اليه لمياس وللوت والقشفش والشراغيش وتستقر تحته تتغذى وتتدفأ ٠

ويعرف الصيادون وجود أسماك فى الزوف ، عندما يلاحظون تصاعد رمال منه على هيئة التبن أو النخالة ، فيكون هذا دليلا على وجود الأسماك ، أما اذا لم توجد بالزوف حركة فلا يكون به سمك ٠

وعندما تقرر سفن الصيد وجود سمك بالزوف وتقرر الاحاطة به تنزل بعض البحارة يعومون الى البر ومعهم طرف الغزل ، وتقوم السفينة بحركة التفاف حول الزوف الى أن تصل بطرف الغزل الآخر الى الشاطىء بحيث يكون الغزل فى ذلك الوضع محيطا بالزوف تماما ٠ ثم يجرف الزوف وما به من الأسماك ، فتمر الأعشاب من عيون الغزل ، ويبقى السمك فى كيس الجرافة ٠

ولصيد المياس العائد بالسنارة يستعمل سلك طويل فى نهايته ثلاث سنارات صغيرة ويطعم هذا السلك بسمكة من نوع « المغزل » وفى الطرف الأسفل من السمكة تكون السنارات ، فعندما تحاول المياسة التقام الطعم تشتبك مع السنارات فيخرجها الصياد ثم يعيد القاء الجهاز وهكذا ٠ مع ملاحظة أن صيد المياس بالسنارة يكون بطريقة « التجربة » وذلك بسحب الطعم فى الماء ليخيل للسمك أنه طعم حى فيهجم عليه لالتقامه ٠

سمك الصرب (الحلام) : انظر شكل ٨

يأتى فى أفواج كبيرة من الشرق قاصدا الغرب فى شهر نوفمبر وعند اكتمال القمر فى المدة المعروفة عند الصيادين باسم « نوة فيضا أى حوالى منتصف نوفمبر يلقى بويضاته على رمال الساحل الغربى ويصطحب معه أسماك الشراغيش والدنيس وهذه أيضا تلقى بويضاتها

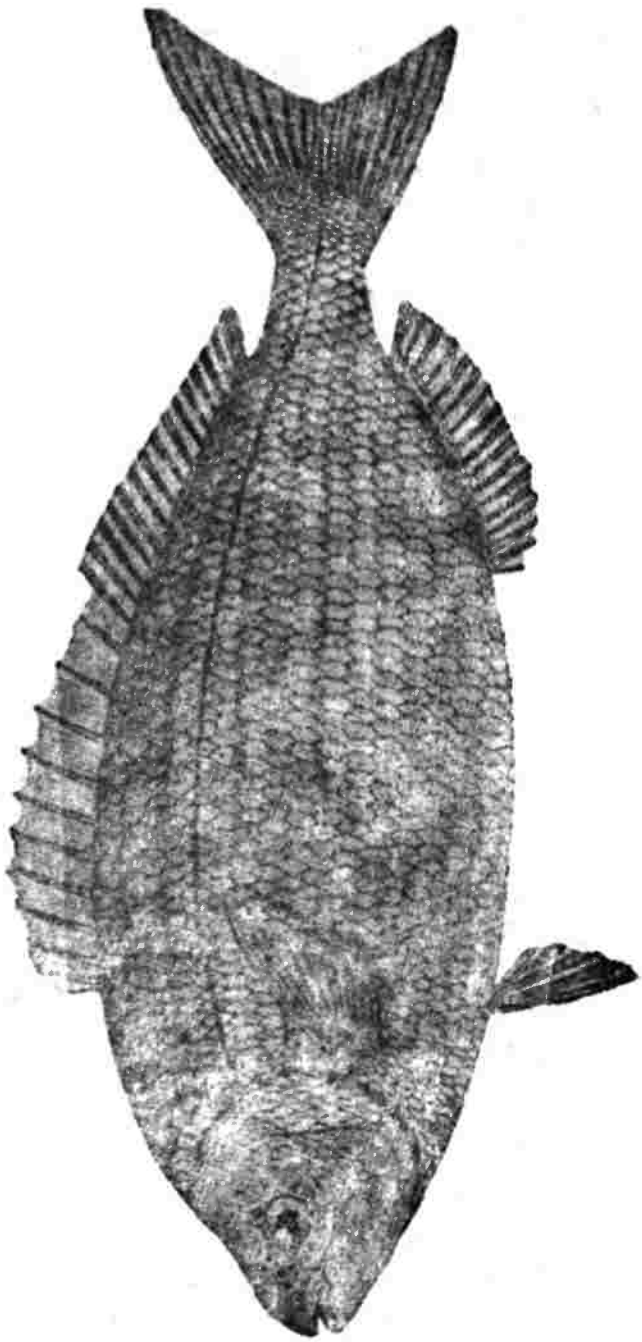

شکل (۸)

ويقضى فى الساحل الغربى نحو شهر ، ثم يعود الى الشرق من حيث جاء فى الوقت الذى يسميه الصيادون « نوة الفيض الكبيرة » أى حوالى أواخر ديسمبر ٠

وعندئذ يظهر على ساحل العجمى والاسكندرية وجليمونوبولو ٠٠ الخ بين الصخور لأنه يأوى الى الصخور لأكل الأعشاب التى هى غذاؤه المفضل كما ذكرنا فى غير هذا المكان ٠

سمك البلاميطة : انظر شكل ٩

تسير على هيئة أسراب من الشرق الى الغرب ، ويعرفهـــا الصيادون بسهولة لأنها فى سيرها تخبط وجه الماء بزعانف الذيل طيلة سيرها ٠

وأحيانا عندما يكون السرب كبيرا جدا يستقر قرب البر وخصوصا فى جونة العميد بالصحراء الغربية وتعرف بلونها الأحمر المائل الى الزرقة بحكم تجمعها ٠ وتكون فى العادة على بعد من ٤ الى ٥ أمتار من الساحل ٠

وعلى العموم تتجه هذه الأسراب الى الساحل الغربى حيث تستقر على رماله للاحتكاك بها واخراج البويضات (البطارخ) ٠

وتصاد البلاميطة من بشنس الى أبيب (بين مايو ويوليو ـ) بالجرافة على الساحل أو بالكدامية على نحو ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر بالداخل ٠

وأحيانا ينصب الصيادون غزولاتهم ليلا على هيئة سدود ويتركونها بحيث تشتبك فيها الأسماك التى تمر من تلك الناحية ٠ فيمد الغزل من البر الى داخل البحر ثم تعمل منه فى الداخل دورة على هيئة جونة والغرض من ذلك أن السمك السائر من الشرق الى الغرب يقع فى الغزل أما اذا سار فى محاذاة الغزل الى الشمال فانه يقع فى الجونة ٠

وفى الشتاء لا يصاد شىء من الساحل الغربى نظرا لشـــدة الرياح والأمواج ٠

شکل (۹)